الفارابي في الشرق والغرب

ومكانته في الفلسفة الاسلامية

بمناسبة مرور ألف عام على وفاته

— ١ —

للاستاذ ضياء الدخيلي

نشرت جريدة (العـــالم العربي) البغدادية بتاريخ ١٣ / ١٢ / ١٩٥٠ تحت عنوان الدعوة للاحتفـال بذكرى الفيلسوف الفارابي : تقول صحف الشام إن السيد فخري البارودي أحد المعروفين بالاشتغال بالقضايا العامة ، والذي انصرف مؤخراً إلى رعاية الجمعيات المنقطعة لخدمة الموسيقى العربية قد رفع إلى وزارة المعارف السورية كتاباً يقترح فيه أن تدعو ممثلي الدول العربية للاشتراك في مهرجان لتخليد ذكرى الفيلسوف الموسيقار أبي نصر الفارابي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته ودفنه في دمشق أسوة بالمهرجان الذي قررت الجامعة العربية إقامته في بغداد خلال الربيع القادم لذكرى ابن سينا . وقد أخبرني الدكتور جواد علي سكرتير المجمع العلمي العراقي عندما عرضت عليه هذا الخبر أن أول من احتفل بذكرى الفارابي الألفية إحدى جامعات النمسا، وقد شهد الاحتفال أحد العرب فتحمس وتألم لنسيان بلاده هذا الفيلسوف العظيم الذي أنتجته المدرسة العربية في بغداد على حين يبعث الوفاء لعبقريته الأوربيين للاحتفال بعيده الألفي. وأودف سكرتير المجمع العلمي العراقي حديثه بقوله لماذا لا يحتفل العرب بالفيلسوف العربي يعقوب الكندي وهو عربي أصيل؟ وبعد مفارقتي الدكتور جواد علي راجعت كتاب أخبار الحكماء للقفطي وكتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وكتاب فهرست ابن النديم وقد ذكر هؤلاء ترجمة الكندي إلا أن الغريب أنهم لم يذكروا تاريخ وفاته غير أني وجدت الأستاذ الزيات يذكر في كتابه القيم تاريخ الأدب العربي أن وفاة يعقوب بن إسحاق الكندي سنة ٢٤٦ هـ ومعنى هذا أنه قد مضى على عيده الألفي حوالي ١٢٤ سنة ولكن لا يمنع ذلك من إقامة احتفال فخم لإحياء ذكرى أول فيلسوف عربي أصيل ؛ ذلك لأن الشعور القومي العربي كان قبل قرن يرزح ويبنوء بأعباء الاضطهاد التركي واليوم قد تنفس العرب الصعداء بعض الشيء وتحرروا قليلا من ربقة استعمار ليخلفه آخر . ولقد فهموا قيمة الاعتزاز بالأمجاد وتقديس الذكريات في بعث الحياة واليقظة في الجيل الجديد، وهاهي تركيا الحديثة قد احتفلت بالفيلسوف الفارابي لادعائها تركيته فقد قرأت في مجلة (الرسالة) الغراء أن الأتراك قرروا الاحتفال بذكراه الألفية في نوفمبر من هذا العام. ولكن الفارابي إن كان تركيا في قوميته فهو عربي في دراسته وثقافته ولغته العلمية فمن واجب العرب أن يحتفلوا بأحد كبار معلمي مدرستهم الفلسفية ومن كان قبل من عباقرة طلابها وها أنى أول من يلبي دعوة ابن الشام للاحتفال بالفارابي على صفحات مجلة (الرسالة) الغراء ومن أولى من (الرسالة) بالاحتفال بذكرى فيلسوف إسلامي كالفارابي، فالرسالة هي المجلة التي حملت في بلاد العرب والإسلام مشعل اليقظة وأثارت السبيل للجيل الجديد إلى كنوز الثقافة العربية وبعثت في النفوس الراكدة نهضة وحياة خليقتين بالإجلال والإكبار وأقبلت على تراث العرب والإسلام تتلمسه لتظهر معالمه للضالين ؛ فأشرقت أنوار ذكريات ذلك المجد الزاهر الذي أضناه نحن أبناؤه واحتفظ بتقديسه الغربيون الذين بقوا يجلون ويكبرون الفارابي وابن سينا وابن رشد والكندي وأخواتهم ويحيطونهم بهالة من الإكبار كموقف الفكر العربي اليوم تجاه أفلاطون وأرسطو وسقراط اليونانيين . من أولى من (الرسالة) في أن تخصص الصفحات المشرقة من أعدادها الغراء للاحتفال بذكرى المعلم الثاني و « الرسالة » هي التي علمت شباب العرب والإسلام اليوم كيف يقدسون تراث السلف الصالح ... فلتحتفل هي بالفارابي أسوة بجامعتي النمسا واستنبول

فقد نشرت جريدة (العزة) البغدادية بتاريخ ١٨ كانون الأول سنة ١٩٥٠ أن وزارة المعارف العراقية تلقت أمس دعوة من جامعة استنبول لاشتراك الحكومة العراقية في الاحتفال بذكرى الفارابي التي ستقوم بها الجامعة المذكورة يوم ٢٩ من الشهر الحالي

بمناسبة مرور ألف عام على وفاته؟ فما هو صدى ذلك في جامعتي فؤاد وفاروق المصريتين؟ وما هو موقف الجامعة السورية؟ أما العراق فإنه مع الأسف بالرغم من كثرة ادعاءات حكومته لا توجد فيه جامعة ذات طابع عراقي خاص

يحدثنا مؤلف (تاريخ فلاسفة الإسلام) أن حكماء العرب انشقوا في أواخر القرن الثالث الهجري إلى فرقتين : الأولى فرقة المتكلمين، وكان للكندي الفضل الأكبر في تمهيد سبيلها واختصت بالإلاهيات وما وراء الطبيعة وكان ظهورها في مرو (خراسان من بلاد إيران) وكانت قبل ذلك الانفصال تتبع فيثاغورس ثم تنحت عنه وعن أتباعه وتعلقت بأرسطو بعد أن لبست تعاليمه ثوب مبادئ الأفلاطونية الحديثة (نيوبلاتونيزم) وكانت هذه الفرقة تبحث الأشياء في مبادئها وتتحرى المعنى والفكرة والروح ولا تصف الله بالحكمة في الخلق أو بالعلة الأولى ولكن بأنه واجب الوجود. وكانت تقدر الأشياء بوجودها فتسمي في إثبات ذلك أولا. وكان الفارابي رئيس هذه الفرقة وزعيمها والمتقدم فيها وإليه المرجع وعليه الاعتماد (راجع تاريخ العرب لنيكولسن) . أما الفرقة الثانية فهي فلاسفة الطبيعة وكان ظهورها بحران والبصرة وقصرت بحثها على ظواهر الطبيعة المادية المحسوسة مثل تخطيط البلدان وأحوال الشعوب، ثم ترقت في البحث فلم تقتصر النظر في الأثر الذي تحدثه الأشياء في عالم الحس، ثم تجاوزت البحث في ذلك إلى النفس والروح فالقوة الإلاهية فعرفتها بالعلة الأولى أو الخالق الحكيم الظاهرة حكمته في مخلوقاته. وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي زعيمها ، وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً طبيعياً

فالفرق ظاهر بين الفرقتين ؟ فالفرقة الثانية التي زعيمها الرازي كانت تبحث فيما هو ظاهر للعيان وملموس بالحس وتقنع بصفاته وقوة أثره في غيره من الموجودات . أما الفرقة الأولى فرقة المتكلمين التي كان رئيسها الفارابي فكانت تقدر الأشياء بوجودها فتسمي في إثبات ذلك الوجود أولا، فالفارابي كان إذن زعيم أكبر فرقة فلسفية في عصره(١). لقد قال الأستاذ محمد لطفي جمعة في مقال له عن الفارابي في المجلد (٧٥) من المقتطف ونشر مضامينه في كتابه (تاريخ فلاسفة الإسلام) — أن مبدأ انشقاق فلاسفة المسلمين كان في أواخر القرن الثالث الهجري لكن دي بوير في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) خالفه في تحديد زمن ذلك الانقسام فحدثنا أنه كان في القرن الرابع الهجري (٢) والحقيقة أنه من الصعب تقسيم الحركات الفكرية إلى فصول زمنية ؛ فليس هنالك حدود فاصلة دقيقة تقطع التيار الفكري إلى قطع متمايزة، فهي كلها تؤلف أحجاراً متلازمة وأجزاء مترابطة في هيكل الحياة الفكرية. فكثير من الأفكار والمبادئ الشائعة اليوم والمهيمنة على القسم المعمور من الأرض تجد جذوره ممتدة إلى أقدم العهود التاريخية، فلو تصفحت (جمهورية أفلاطون) مثلا لوجدت فيها طائفة من الأفكار الحديثة التي يعتقد الناس خطأ أنها وليدة العصر الحديث وأنها من نتاج أبناء اليوم؛ وكذلك القول في (رسائل إخوان الصفا) ...

على أن هناك من ينكر هذا الانشقاق في اتجاه الفلاسفة . وإني عند ما درست شرح إشارات ابن سينا للطوسي والكاتبي ودرست الإلهيات من شرح المواقف وشرح منظومة السبزواري في الفلسفة ودرست حاشية الملا عبد الله وشرح الشمسية وشرح منظومة الشيخ هادي شليله في علم المنطق وغيرها من كتب الفلسفة الإسلامية ودرست في علم الكلام شرح تجريد الطوسي للعلامة الحلي ؛ أقول عند ما درست هذه الكتب الفلسفية في مدارس النجف الأشرف الإسلامية لم أجد أساتذتنا يقسمون فلاسفة المسلمين إلى هاتين الطائفتين ، وكانوا رحمهم الله يخلطون بين أقوالهم جميعاً في مزيج واحد؛ ولكن دي بوير يصر على هذا التقسيم فيقول في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) أخذ أصحاب المنطق أو أصحاب ما بعد الطبيعة يتميزون في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) عن الفلاسفة الطبيعيين . والأولون يسلكون في أبحاثهم منهجاً أكثر دقة وصرامة من منهج المتكلمين (ومنهجهم يقوم على استنباط الأشياء من أصولها على طريقة برهانية دقيقة) وقد رغبوا عن مذهب فيثاغورس وانقادوا لأرسطو الذي وصلت إليهم فلسفته في ثوب من المذهب الأفلاطوني الجديد

(١) تاريخ فلاسفة الاسلام للاستاذ محمد لطفي جمعة ص ٥ وأيضا في المجلد ٧٠ من المقتطف مقال له حول الفارابي

٢ — تاريخ الفلاسفة في الاسلام تأليف المستشرق دي بوير

وهنا نجدنا أمام اتجاهين فى العلم عنى بكل منهما فريق ، فالفلاسفة الطبيعيون عنوا — على تفاوت فيما بينهم — بدراسة مافى الطبيعة من ظواهر مادية كثيرة كما هو الحال فى علم الجغرافيا وشأن الأمر الجزئى فى نظرهم ثانوى وهو لا يزيد عن كونه مندرجا تحت كلى ويمكن استنباطه من هذا الكلى . وعلى حين أن الفلاسفة الطبيعيين يجعلون دراسة آثار الأشياء أساساً لأبحاثهم فإن أصحاب المنطق يحاولون إدراك الأشياء باستنباطها من أصول. وهم فى كل أبحاثهم يتلمسون ماهيات الأشياء وحقائقها. وقد جاء أهل المنطق بعد الطبيعيين فى الزمان كما أن متكلمى المعتزلة نظروا أولا فى المخلوقات ثم نظروا فى ذات الخالق بعد ذلك . وقد عرفنا أن الرازى الطبيب المشهور المتوفى عام ٣٢٠ هـ كان أكبر ممثل للفلسفة الطبيعية ، أما مباحث ما بعد الطبيعة التى يستعمل فيها المنهج المنطق والتى مهد الكندى وغيره إليها السبيل فهى تبلغ أوجها ممثلة فى رجل معاصر للرازى وأصغر منه سنا هو الفارابى

وقد كان الفارابى رجلا ممن يخلدون إلى السكينة والهدوء ؛ وقد وقف حياته على التأمل الفلسفى بظله الملوك بسلطانهم ؛ ثم ظهر فى آخر الأمر فى زى أهل التصوف ويقال إن والد الفارابى كان قائد جيش رأصله فارسى وإن الفارابى نفسه ولد فى وسيج وهى قرية حصينة تقع فى ولاية فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . هذا ما يقوله ذى بور فهو يعتبر الفارابى ممن يمثل مباحث ما بعد الطبيعة فى أوجها ، ونجده قد اعتبر فيلسوفنا فارسيا فى قوميته ولكن كارادفو فى البحث الذى كتبه لدائرة المعارف الإسلامية عن الفارابى يقول: كان الفارابى أعظم فلاسفة الإسلام قبل ابن سينا. ولد فى عائلة تركية فى أواخر القرن السابع الميلادى فى وسيج وهى مدينة صغيرة محصنة فى مقاطعة فاراب. فتراه يعتبره فى الأتراك ، وهذا ما حدا بحكومة الأناضول التركية أن تحتفل بعيده الألفى فى جامعة استنبول فى ٢٩ كانون الأول سنة ١٩٥٠

وقال كارادفو فى دائرة المعارف الإسلامية (المجلد الثانى ص ٤٣) إن الفارابى درس فى بغداد على طبيب مسيحى اسمه يوحنا ابن حيلان واشتغل أيضا عند أبى بشر متى وهو مسيحى نسطورى اشتهر بكونه مترجماً لكتب اليونان . وقد ذهب الفارابى إلى حلب بعد ذلك واتصل ببلاط سيف الدولة الحمدانى وعاش فى ظله فى حياة الصوفية

واشتهر الفارابى كشارح للفلسفة أرسطو وأكسبته جهوده فى ذلك لقب (المعلم الثانى) باعتباره ثانيا للمعلم الأول أرسطو وقد شرح كتبا لليونان فى ما وراء الطبيعة والفلسفة والعلم ولم يقتصر على شرح كتب اليونانيين بل إنه ألف كتبا كثيرة مستقلة وقد طبع له تسع رسائل صغيرة من أشهرها (فصول الحكمة) وهذه الرسالة تحوى آراء عديدة بشكل مختصر . وقد تداولت فى كل مدارس الشرق وشرحها إسماعيل الحسينى الفارابى (من القرن الخامس وطبعت فى الطبعة الأميرية . وطبع له أيضا رسالته التالية (رسالة فى آراء أهل المدينة الفاضلة) وهى رسالة مهمة فى ٣٤ فصلا وفيها أوضح ذلك الفيلسوف المسلم المشبع بفلسفة أفلاطون ما يتصوره فى تنظيم المدينة الكاملة التى يجب أن يحكمها عقلاؤها ، وأن يكون هدفها أن تقتدى فى العالم السفلى الأرضى بمدن الفردوس فى كمالها ، وأن تهيئ سكانها للغبطة وسعادة سكان مدن الجنة الثانية [١]

يقول كارادفو إن هذه النظرية ضئيلة المنفعة من الوجهة العملية ولكن فيها بعض الأهمية من وجهة علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) وكانت غاية الفارابى ومراميه كسائر فلاسفة المدرسة التى ينتمى إليها — أن يحيط بدائرة جميع العلوم . ويظهر أنه كان رياضيا ممتازاً وطبيباً فاضلا . وألف فى علوم السحر والتنجيم ، وكان موسيقاراً . هذا رأى كارادفو فى الفارابى

ويحدثنا [٢] صاعد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٢ هـ لاعن إعجابه بمؤلفات الفارابى فيقول: ألف الفارابى كتاباً فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها وله كتاب فى أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس اطلع فيه على أسرار العلوم وتمارها علماً علماً وبين كيفية التدرج من بعضها إلى بعض شيئاً فشيئاً ثم بدأ بفلسفة أفلاطون فعرف بغرضه منها وسمى تآليفه فيها ، ثم أتبع ذلك

١ — دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى ص ٥٣ من النسخة الانجليزية
٢ — طبقات الأمم لصاعد الأندلسى

بفلسفة أرسطاطاليس فقدم له مقدمة جليلة عرف فيها بتدرجه إلى فلسفته ثم بدأ بوصف أغراضه فى تآليفه المنطقية والطبيعية كتاباً كتاباً. قال ساعد فلا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منه ؛ قال وللفارابى فى ما وراء الطبيعة وفى العلم المدنى كتابان لا نظير لهما، أحدهما المعروف بالسياسة المدنية، والثانى المعروف بالسيرة الفاضلة، كتبهما وفق مذهب أرسطاطاليس اليونانى. وقد عقد أستاذ فى الجامعة الأمريكية ببيروت هو الدكتور أمين أسعد — مقارنة فى كتابه (الطب العربى) [1] بين الكندى والفارابى وابن سينا فقال إن أساس الفلسفة العربية مأخوذ من اليونانية بعد تعديله ليوافق تعاليم الإسلام وذوق الشرقيين وقد اعتبر العرب أن تعاليم أرسطاطاليس تمثل الفلسفة اليونانية والدين الإسلامى. وكانت طريقة الكندى فى بحثه انتخابية فإيثها التوفيق بين فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس من جهة وبين التعاليم الإسلامية من جهة أخرى. أما الفارابى فقد جمع بين الفلسفة الأفلاطونية والأرسطوطاليسية والتعاليم الصوفية معاً. وفى كتابه (السياسة المدنية) صور المدينة الفاضلة مقتدياً بجمهورية أفلاطون وسياسة أرسطاطاليس. وقد تأثر ابن سينا تأثراً بالغاً بفلسفة الفارابى ووضع قانوناً للفلسفة اليونانية كما وضع قانونا للطب اليونانى وأهداه إلى العالم فى قالب بسيط ومقبول. ونجد هذا الأستاذ يعتبر الفارابى متبعاً لأفلاطون ومتأثراً بخطى أرسطاطاليس فى كتابيهما (الجمهورية) و (السياسة) والحق أن الفارابى قد اتسع خياله فبنى مجتمعاً ودولة كما يريدها على وجه الأرض لا كما تريده الطبيعة، فان الواقع كثيراً ما كان يجانب الدجال المراوغ على جهله وكان ضد العاقل الحكيم. وعليه فإن أحلام الفارابى لن تتحقق فى هذا العالم الدنيوى وإن بقيت شهوة لذيذة تصبو لتحقيقها نفوس الحكماء. وقد ذكره الأستاذ سلامه موسى فى كتابه (أحلام الفلاسفة) واستعرض كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة إلى جنب جمهورية افلاطون. ولا نجراً أن نرى الفارابى بتقليد أفلاطون فإنه من المبتكرين ولكنه حاكى الفيلسوف اليونانى القديم بطريقة التأليف.

وقد درج القدماء والمتأخرون على اعتبار ابن سينا تلميذاً للفارابى فى حين أن هذا قد توفى عام ٣٣٩ هـ أما ابن سينا فقد مات عام ٤٢٨ هـ وكان عمره إذ ذاك (٥٨) سنة. وعليه فإن ولادته كانت حوالى سنة ٣٧٠ هـ أى أن ابن سينا ولد بعد وفاة الفارابى بواحد وثلاثين (٣١) عاماً فما معنى اعتباره تلميذاً للفارابى ؟ الجواب أنهم اعتبروه تلميذاً له لأنه فهم الفلسفة من كتب الفارابى، فهذا ابن خلكان يقول فى وفيات الأعيان (إن الفارابى كان أكبر فلاسفة المسلمين ولم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه وأن الشيخ الرئيس ابن سينا بكتبه تخرج وبكلامه فى تصانيفه انتفع) [1]

وقد أعترف ابن سينا نفسه بفضل الفارابى عليه فقال فى ترجمة حياته التى أملاها على أحد تلاميذه (الجوزجانى) لما سأله (.. حتى أحكمت علم المنطق والطبيعى والرياضى ثم عدت إلى العلم الإلاهى وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم ما فيه والتبس على غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لى محفوظا وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا أعرف المقصود به وأيست فى نفسى وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الوراقين وبيد دلال مجلد ينادى عليه فعرضه على فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة فى هذا العلم، فقال لى اشتر منى هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه. فاشتريته فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة فرجعت إلى بيتى وأسرعت فى قراءته فانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه صار لى على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت ثانى يوم بشىء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى) [2]

ولكن بعض المؤرخين يسرف فى تحدثه عن هذه العلاقة الفكرية بين الفارابى وابن سينا فهل سمت بالنهمة الشنعاء التى يفهم منها ضمنا أن ابن سينا سرق أتعاب الفارابى الفكرية وانتحلها وادعاها ؟ قال حاجى خليفة فى كشف الظنون (ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ طبعة ليبتزج) نقلا عن كتاب حاشية المطالع (وقد نقل هذا أيضا الأستاذ مصطفى عبد الرازق فى رسالته عن الفارابى (المعلم الثانى) — نقلا عن كتاب

١ — الطب العربى للدكتور أمين أسعد الأستاذ فى جامعة بيروت

١ — وفيات الأعيان لابن خلكان
٢ — طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الثانى